الفصل الثاني
نظرية الأصل الايغوري للخزر

عرف اسم الأتراك أولاً، عندما ظهرت تلك القوة العظيمة في القرن السادس، وذلك حسبما ذكرنا في الفصل السالف، وأصبح هذا الاسم يطلق على مجموعات منتمية إلى أسرة عرقية واحدة ظهرت في أوقات متباينة، ولهذا ليس هنالك أدنى شك في أن الخزر هم أتراك، إذا اعتمدنا هذا المصطلح في إطاره العريض، أي هم ليسوا فلنديين (فينو ايغور) كما كان يظن[1]، وهم ليسوا جافتيك Japhetic ولا قوقازيين[2]، ولا سواهم، فألقاب قادتهم، ووجود الملكية المزدوجة عندهم لا يمكن تفسيره إلاّ على ضوء هذا المعيار، ولهذا أصبح واجباً علينا الآن أن نستقصي، ونسأل إذا كان هنالك شعب قريب أو شعوب قريبة يمكن أن يكون للخزر أية علاقة أو قرابة معها من أي نوع كان.

وهنالك شواهد عديدة تدفعنا إلى ربط الخزر بشعب الإيغور، فهذا الشعب كان موجوداً قبل، وبعد، ظهور الإمبراطورية التركية، ووصلت المعلومات إلينا من السجلات الصينية، ومن النقوشات التركية القديمة، ولدينا بعض المقاطع لدى الكتاب البيزنطيين تتحدث عن وجود الإيغور في الغرب[3].

---

(1) على سبيل المثال كلابروث في المجلة الآسيوية: 1/ 3/ 160، وما بعد ذلك أيضاً بكثير.

(2) بشماكوف النص نفسه. أنظر أيضاً ن. سلوتشز في Melanges H. Derenbourg.

ويرى إيفانون:

(Welteschichte des Judischen Volkes Berlin, M. d, IV. 247).

أن الخزر قد جاؤوا من جنوب القوقاز، ومحقاً يعدّهم أتراكاً.

(3) كان الأستاذ هالون لطيفاً بما فيه الكفاية بتزويدي بالفعل بجميع المعلومات التالية حول المصادر الصينية.

ولهذا فمن المناسب أن نتفحص ما ذكرته بعض المصادر الصينية أولاً، وطبقاً لما ذكره جيبون، فقد كان الصينيون يطلقون اسم كوسا Kosa على الخزر، ويستشهد على هذا القول الذي يبدو للوهلة الأولى مدهشاً بكتاب تاريخ الهون، تأليف دي جوجنيز[1] De Guignes الذي اشتق المعادلة التالية: كوسا = الخزر، من كتاب وين هسين تونغ كاو Wên-hsien T'ung-K'ao الذي ظهرت آخر نشرة منقحة منه في عام 1322م.

ويحتوي هذا الكتاب على مقالة حول «الغورلين» أو الروم، وأراد بذلك الإمبراطورية البيزنطية، وهذه المقالة منقولة بشكل حرفي من كتاب صيني أقدم اسمه تونغ ـ تين T'ung-ten قد كتب في المدة ما بين 766 ـ 801م والمصدر الذي اشتقت منه المقالة معلوماتها حول الغورلين أو الروم، هو رواية عن رجل صيني يدعى تو ـ هوان، كان قد سقط أسيراً في أيدي العرب في معركة طراز (تالاس) عام 751م، ثم عاد إلى الصين عام 762م[2].

وقد سمع تو ـ هوان كما هو مؤكد عن الخزر، وقال: إنهم جيران العرب الشماليون، وقد أشار إليهم بوضوح باسم «كورساترك» وأشار إلى علاقتهم مع تشان[3] (الشام ـ سورية) وذلك فضلاً عن علاقتهم مع الغوليين[4] (الروم). ويماثل هذا ما جاء في كتاب تانغ ـ شو T'ang-shu الذي لدينا نشرتان منه، ترجع إحداهما إلى عام 945م والأخرى إلى عام 1060م حيث تحدث أن الكوسا ـ ترك كانوا مقيمين في شمالي الإمبراطورية البيزنطية[5]، وخوارزم[6]، وبلاد فارس[7]. ويلاحظ أنه

---

(1) انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية: الفصل 46.

(2) هيرث وروخل ـ تشاوجو ـ كو: 168 . . . بليوت، الحرفيون الصينيون في العاصمة العباسية في 751 ـ 762. تونغ ـ باو: 26/ (1908 ـ 1929) 110.

(3) ون ـ هسين تانغ ـ كاو: 339. الكتاب 19: تانغ ـ تين: 193/ 24آ. وترجم الأستاذ هالون أن «بلادشان» قائمة على الحدود الغربية لبلاد تارشيه (العباسيين). . وهي مصاقبة في الشمال «لكلو ـ سا» الأتراك وهنالك إلى شمال «كلو ـ سا» أتراك آخرون أيضاً.

(4) ون ـ هيسن تنغ ـ كاو: 329، 3آ: تانغ ـ تين: 193، الكتاب 11، وهو مترجم من قبل هيرث في كتاب «الصين وروما الشرقية»: 83.

(5) تانغ ـ شو: 221. ترجمة هيث المصدر نفسه: 56.

(6) تانغ ـ شو: الكتاب 221/ 27. ترجمة برتشندر «أبحاث»: 2/ 93 وشافانس، الوثائق: 145.

(7) تانغ ـ شو: الكتاب 221/ 64. ترجمة شافانس، المصدر نفسه: 170.

بالنسبة لعبارة خوارزم أن هذا الاسم يظهر بتهجئة مختلفة مثلما ظهر اسم هوسا ـ ترك[1] Ho-sa turks.

ولا يوجد في المصادر الصينية من شيء يؤدي بنا إلى الافتراض بان العبارات التي ورد ذكرها من قبل مثل «تشنستان تشيبتوخ»، وخاقان الصين لها أي دلالة على وجود نشاط صيني في جوار بحر قزوين، أو أنه من الممكن تفسيرها بالعكس، وذلك بسبب المزج بينها وبين سنيجبو (سن ـ يغو؟) ولكن نعلم من هذه المصادر أن القبيلة السادسة من القبائل الإيغورية التسع الأولى، كانت تدعى كوسا Ko-sa[2]، فهل كو ـ سا هذه هي كوسا K'osa الخزر نفسها؟ إنها لعمري معادلة مثيرة وجذابة.

ويرجع الفضل في تكوين هذه المعادلة إلى إي. هـ ـ باركر E. H. parker الذي تحدث عن كو ـ سا Ko-sa في أطر العلاقات مع بعض الأتراك المدعويين باسم شادو ـ ترك، حيث يقول: «يبدو أن هؤلاء قد هاجروا غرباً، لأن تاريخ أسرة تانغ T'ang (يشير هنا إلى المقطع المقتبس عن تانغ شو T'ang-shu المذكور أعلاه) الذي يذكر وجود شعب الخزر شمال غرب العرب[3].

ويمكننا أن نلاحظ أنه طبقاً لرأي باكر إن «الشادو ـ ترك»، هم الأتراك الغربيون[4]. وهناك رأي حديث أورده بول بلليوت Paul-Peliot قال فيه بصراحة إن الاسم نفسه موجود لدى الخزر، ولدى كوسا Ko-sa القبيلة الإيغورية، وهو يستشهد هنا بمصادر أخرى موثوقة، وحقائق وثيقة الصلة بالموضوع[5].

ويتضح لنا من النقوش بأن الإيغوريين كانوا موجودين أيام الإمبراطورية التركية، ففي عام 742م ألفوا جزءاً من الإئتلاف الذي عمل على تقويض سلطة الأتراك الشرقيين، واستلموا بعدها مقاليد الحكم والزعامة على ضفاف نهر أورخون[6] حتى عام 840م، ومن

(1) من الممكن أن هذا يشير إلى رواية مستقلة لـ «تو ـ هوان».

(2) شافانس: الوثائق: 94.

(3) ألف سنة من سني التتر. ط ثانية: 198.

(4) المصدر نفسه: 180.

(5) نومز ترك: 208 رقم 1.

(6) مينورسكي، حدود: 264.

المؤكد أننا نجدهم مذكورين في سجلات الشرق الأقصى في وقت أبكر من هذا التاريخ بكثير، فقد كانوا يتزعمون الاتحاد التركي العظيم بقيادة وي. Wei الأخير، أو حتى في وقت أبكر من ذلك يعود إلى عصر وي الأول[1] (227 ـ 264)، وطبقاً لإحدى نسخ كتاب تانغ ـ شو، يقال إنهم انحدروا من هونغ ـ نو[2] (الهون)، ويمكن ربط هذه الحقائق بما كان قد ذكره المؤلفون البيزنطيون.

وقد كنا أشرنا إلى المقطع الذي ذكره برسكوس حول ظهور السابريين في حوالي عام 263م، ففي ذلك الحين شعر سفراء ثلاثة شعوب وهم السرغور، والأوتغور، وشعب آخر، ربما كان الإيغور[3] أنهم مهددون، وطلبوا المساعدة من الإغريق، ومن الواضح أن هذا يدل على أنهم كانوا في جوار بيزنطة، كما أنه من المفترض أنهم كانوا لا يزالون حيث هم بعد قرن من الزمان، وذلك عندما انحدرت عليهم القبائل من: «فار»، و «هوني» وكانوا يدعون أنفسهم «آفار» مع أنهم كانوا بالحقيقة من الإيغور الذين وصلوا لأول مرة من الشرق[4] عام 558م، لأننا نسمع أن القادمين الجدد سببوا الذعر لدى ظهورهم بين البرسلت (البرساليين)، والأوتغور، والسابريين[5] وفي رواية شبيهة يقال إنهم هاجموا قبائل الأوتغور والسابريين[6].

ويمكن عدّ هذا الوضع بمثابة حالة من حالات الهجرات المتتابعة لمجموعات من الإيغور ابتداء من قبل عام 165م، نزحوا بها غرباً حتى اقتربوا من حدود أوروبا، ونحن نقرأ بالتأكيد عن قبائل إيغورية في غرب نهر الفولغا عام 569م[7]، وعن قوة من الأوتغور

(1) شافانس، الوثائق: 87 ـ 89.

(2) مرقوارت: 45.

(3) برسكوس، ط. بون: 158، أوروغوي عند أرتامونوف: 135 ثم أوغور لكنه يقرأها أوروغوي، ويبدو أنه من الشطط افتراض أن هذه القبائل هي أوغورية؟ وليست إيغورية في وقت لدينا فيه «ساري إيغور» وعلى أطراف الإيغور في الشرق الأقصى فيما بعد (أنظر على سبيل المثال مينورسكي، حدود العالم: 264 ـ 265، 509).

(4) أنظر الفصل الأول.

(5) ثيوفيلاكت، ط. بون: 284 (صحح سارسيلت).

(6) مناندر: 284.

(7) المصدر نفسه: 301.

تحاصر البوسفور (كيرتش) عام 576م[1]. وفي كلا الحالتين كان هؤلاء أتباعاً للأتراك الغربيين، ومن الواضح أن عمليات الانتقال والهجرة هذه لم تتم حتى عام 598م، عندما وصلت شعوب ورشونايتيه varchomites أخرى إلى أوروبا، كما رأينا من قبل[2].

ومن المؤكد أنه لم ينسحب جميع الايغور غرباً، ولكن هنالك أمر لا يخفى علينا، وهو أنه كان هنالك شعب غريب يقطن ضمن الأراضي التي كانت تحت سيطرة الأتراك، وربما وراءها، وقد عانى هذا الشعب من هزائم ومذابح كان يتوق بسببها إلى الانتقام[3]، ولم يكن من قبيل الصدفة أن تم القضاء على الأتراك الغربيين ما بين عامي 652 ـ 657م، وكذلك القضاء على الأتراك الشرقيين فيما بعد على يد ائتلاف كون الايغور جزءاً هاماً منه.

ونحن نعلم أن الخزر قد حلوا محل الأتراك الغربيين بالنسبة للسلطة بعد ذلك بقليل، ويبدو أن الخزر كانت تدعمهم مجموعات أخرى مثل الزبندر (سمندر)، والكوتزاغيريين[4] (البلغار) وأنهم أصبحوا الآن يسيرون بخطى حثيثة نحو إنشاء الإمبراطورية[5]، ومن المفهوم أن فرض زعامة الخزر والإقرار بها قبل عام 657م، أو

---

(1) المصدر نفسه: 404. أنظر أيضاً 399.

(2) من المفترض هنا أن أسماء مثل: سرغور وأنغور وأوتغور تشمل المجموعة نفسها، ويمكن ترجمتها كما يلي: «الايغور الأصغر» «الايغور العشر» الايغور الثلاث؟». أنظر زكي وليدي، ابن فضلان: 271.

(3) ثيوفيلاكت: 285 حيث يفترض أن اسم «كلخ» لابد أنه يشير إلى زعيم الايغور كما رأى جيبون ذلك (انحدار وسقوط، فصل 42) وليس إلى أمة تركية غير معروفة ـ أنظر مرقوارت ـ التاريخ: 170 ـ شافانس ـ الوثائق: 251.

(4) أنظر الفصل الأول.

(5) يبدو أن مشكلة خاقانية الخزر مرتبطة بخاقانية الآفار (الآفار ـ الأدعياء) الذين شرعوا منذ حوالي سنة 558 باجتياح الأراضي الأوروبية، وقد قيل إن «الفارشونايتيين» الذين قدموا في سنة 598 قد التحقوا بخاقانية الآفار، لكن لم يفعلوا ذلك جميعاً، وكان الحال إما أنه: 1 ـ كانت هنالك أسرة حاكمة بين الخزر في الغرب منذ تاريخ مبكر (من أسرة آخينا؟، أنظر حدود العالم 162) أو: 2 ـ ارتبطت الخاقانية الخزرية بالهجرة الثانية للفارين من الآفار في 598. أو: 3 ـ اخترع الخزر خاقانية (تقليداً للآفار؟) ويبدو الاحتمال الثاني بين هذه الاحتمالات هو الأكثر قبولاً، مع سمندر (زبندر) عاصمة أولى للخزر (أنظر نص المسعودي في الفصل السابع)، وينبغي بدون شك تأخير تاريخ الخاقانية بدلاً من التقديم على حوادث سني 652 ـ 657، ومن جهة إن ما جاء عند اليعقوبي عن خاقان الخزر ونائبه من الممكن أنه يشير إلى السنوات التي تقدمت على قدوم العرب (حوالي 642)، =

بعده، ما كان ليتم لولا أن هؤلاء الخزر كانوا يمثلون قبيلة (كوسا) التي انتمت إلى شعب قديم حاكم، لكن إذا قدرنا أن انتماءهم لـ «ورشونايتيين» أمراً مشكوكاً فيه، فإن انتماءهم العرقي يصبح حينئذ مرتبطاً بأسلاف أقل أصالة ومحتداً[1].

إن الرأي الذي يقول أن الخزر من الممكن أن يكونوا هم كوسا ـ إيغور هو رأي يعوزه الإثبات والبرهان الحاسم، ومع هذا نجد عدة معايير تدعم هذا الرأي، الأمر الذي يجعلنا نتوقف قليلاً للنظر، ما دام أن لهذا الرأي وزناً وتقديراً.

وربما نجد إثباتاً وتعزيزاً لوجود طور من أطوار النمو القديم للإيغور في المنطقة المدعوة ببلاد الخزر، وذلك في قصة ذكرها: ميخائيل السوري، وابن العبري، وجرى نقلها في الفصل السالف، فقد كان هنالك شعب يدعى بوغوريا أو بانغوريا، وهو أحد الشعوب التي يظن أنها احتلت أوروبا الشرقية قبل قدوم: الخزر، والبلغار، لكن لا يمكننا أن نكوّن فكرة صحيحة عن الأوضاع التي اتخذها هذا الشعب.

وقد بذلت عدة محاولات لإيضاح وجلاء غموض هذه القضية، إذ أننا نجد ناشري كتاب ابن العبري الأوائل: برنز Bruns، وكيرسش Kirsch يقدمان اسم «الهنغار» وأما ولس بدج Wallis Budge فيقدم اسم البنغوريين؟ في حين يقترح ماركورت تعديلاً للنص بحيث يصبح شعب بلنجر[2]، ويبدو أن هذا الرأي الأخير هو التفسير الأكثر معقولية وقبولاً، لكن بما أن ابن العبري يذكر كلمة مشابهة عند الإشارة إلى الإيغور، لذلك لا يسعنا إلاّ إثباتها[3] هنا، فقد جاء فيها ما يعني أن الإيغور، هم الذين استقروا في أوروبا حسبما نجدهم في المصادر الإغريقية.

هذا وإننا نجد بين أسماء الأعيان والشخصيات البارزة في دولة الخزر، حامل لقب جاوشيغر، وذلك طبقاً لما ذكره ابن فضلان. ومن المحتمل أن يكون آخر جزء من هذا اللقب

= وحيث أنه كما يبدو لم يكن هنالك خاقانية خزرية في 667 ـ 630 (أنظر الفصل الأول) فالمنصب قد قام في عقد / 630 ـ 640/ ، إن لم يكن بعد 657.

(1) أنظر شافانس، الوثائق: رقم 88.

(2) مرقوارت: 491.

(3) ابن العبري ـ تحقيق بدج ـ ورقة 126 و.

هو «إيغور»، وقد فسر هذا اللقب بـ «شاووش إيغور» الذي قد يكون معناه «مقدم الإيغور»، وهذا من التفسيرات البديلة التي تبدو مصطنعة[1] بشكل مفرط.

وهنالك بعض التشابه بين المراسم المتبعة لدى خاقان الخزر كما يصفها ابن فضلان[2]، وبين بعض القصص التي تروى عن ملك الظغز أوغز[3]، التي سوف نقدمها هنا. فالمصادر العربية على العموم تجيز إطلاق اسم شعب الظغز أوغز على الإيغور[4]، وبصورة خاصة على إيغورتيان، شأن الذين تعنيهم هذه القصص (منذ حوالي سنة 860م)[5]. فملكهم شأنه شأن ملك الخزر لا يحكم بنفسه بل «جميع شؤون مملكته كان يتم تصريفها على أيدي الوزراء والحجاب» وكان خاقان الخزر يمتلك ستين جارية، أما ملك الطغز أوغز فكان يمتلك ثلاثمائة وستين جارية.

وكان ملك الطغز أوغز يظهر أمام شعبه مرة كل سنة، أما خاقان الخزر ـ فطبقا لابن فضلان ـ كان يظهر لشعبه علناً كل أربعة أشهر، وكان يتقبل عند ظهوره خضوع شعبه، واحترامهم، عندما يسجدون أمامه، كما أن شعب الطغز أوغز كان يسجد أيضاً، وإذا كان ما ذكرناه ممارساً حقيقة بين التيان شان، ايغور، علينا كما يبدو أن نقدر أنه كانت هنالك علاقة وطيدة بينهم وبين الخزر.

أما إذا انتقلنا إلى العلاقات اللغوية بين شعبي الخزر، والإيغور، فالمعالم الموجودة للهجات الإيغور لا تنير لنا السبيل، إذ من المقبول بصورة عامة عدّ انتماء اللهجات الخزرية إلى الفرع المنحرف الذي يدعى أحياناً باسم الفرع التركي الليري Lir، الذي يقابله الفرع

(1) اقترح زكي وليدي (ابن فضلان 261) أن «جاولي شغير» هي كلمة مركبة من «جاولي بك» «وجغري بك» وهما لقبان وجدا لدى القراخانية، ويفترض زاجاتشوسكي في دراسات: 34 ـ 35، 97، أن «جرشغير» مأخوذة من «سرش» «جرش» التي هي شكل من الأشكال يتضمن «غير» التي تعني «محكم» أو «قاضي».

(2) أنظر الترجمة في الفصل الخامس.

(3) من رسالة في الأقاليم ـ مخطوطة كوبرللي 1623 ـ نقل عنها زكي وليدي في ابن فضلان: 263، 68.

(4) يتوافق رأي مرقوارت مع ما توصل إليه مينورسكي، تميم: 304.

(5) أنظر زكي وليدي، ابن فضلان: 197، حاشية.

التركي شاز[1] Shaz وهو الذي يتمثل في جميع اللهجات التركية تقريباً، وتعرف اللهجة الإيغورية على أنها لهجة شازية[2]، وليس هناك أي شاهد على العكس، ومن المفهوم أيضاً أن اللهجة التركية الليرية كانت واسعة الانتشار في أزمان قديمة جداً، وإذا جاز لنا أن نتقبل وجود علاقات خزرية ـ إيغورية من نواح أخرى، لا شك في أن القضايا اللغوية سوف لا تقف حائلاً دون تثبيت هذه العلاقات[3].

وأخيراً لا يمكننا أن نغفل ذكر وجهة النظر التي تقول إن الأسماء الوطنية عند شعبي البلغار، والبشكير متشابهة[4]، ويماثل هذا الفروق بين: لير، وشاز التركيتين، فكلمة بيل biel، أو بل Bil في لير التركية يقابلها باش في شاز التركية، والجزء الأخير من كلا الاسمين ينتهي بـ «غور» Gur أو «غير» Gir، وهما عبارتان متشابهتان كلتاهما تفسران بـ «الأغور الخمسة» (إيغور)، وإذا كان هذا الاشتقاق المقدم صحيحاً فهو يعطي إثباتاً ممتعاً على صحة النظرية التي ناقشناها في هذا الفصل، إذ لا شك في أن العلاقة بين الخزر والبلغار كانت وثيقة في جميع الأوقات.

---

(1) أخذت المصطلحات المستقاة من المراسلات في نمط Sh(a) Z... 1(i)R على أنها تمثل التغييرات الصوتية الرئيسة بين مجموعتين من اللغات. أنظر: زكي وليدي، ابن فضلان 105. ويعود الاصطلاح الرئيسي إلى رامستدت. أنظر: ن. بوب «غوستاف جون رامستدت» في دورية هارفارد للدراسات الآسيوية: 14 (1951)/ 319.

(2) على سبيل المثال ساموبلوفتش في الموسوعة الإسلامية ـ مادة: ـ ترك.

(3) جرى بحث مسألة لغة الخزر في الفصول التالية.

(4) نقل رأي مونكاس من قبل زكي وليدي في ابن فضلان: 147.